العرب
الخميس 2021/08/12
السنة 44 العدد 12146

# الحرائق والأوبئة تصنع المشهد العبثي وتعلن موت الإنسان

## مشاهد ميثولوجية تعيد تذكير البشر بصراعهم الأزلي مع الطبيعة

انتشـرت مؤخرا الحرائق في أماكن عديدة من العالم، مخلفة كوارث بيئية فادحة، ومهددة الحياة البشرية على سطح الكوكب، ولم تتخلف الفنون من الآداب إلى التشكيل والسينما ولا الفلسفة والأساطير عن مقاربة الحرائق التي ما انفكت تشـتد كلما تقدم الإنسـان في الزمن وفي ادعاء سيطرته على العالم.

شريط من الفجائع تنبأت به الكتب والأفلام

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

يبـدو أن لا مجـال للمقاربـة أو الاسـتعارة التخييليـة بـين مـا يحدث فعلا على أرض الواقع، وبين ما اشـتهاه الكتّاب والأدباء والسينمائيون من أوبئة وحرائـق على صفحات رواياتهم أو على شاشات أفلامهم.

لا الطاعـون كان طاعونـا واقعا في مدينـة وهران الجزائرية كمـا زعم ألبير كامو (1913 ـ 1960) في روايته "الطاعون" ذات البعد الوجودي المتمحور حول فكرة الخوف. ولا الحريق كان بالفعل، حريقا، كما ذكر محمد ديب (1920 ـ 2003) في نص ثلاثيته الشهيرة "الحريق" الذي أراد فيه ـ مجـازا ـ الإشـارة إلى اشـتعال الثورة ضد المسـتعمر، لكنّ الواقع هذه المرّة كان أصدق إنباء من الكتب، إذ تشهد الجزائر خـلال الأيـام الأخيـرة حرائـق غابات أسـفرت عـن خسـائر فادحـة ويصعب تطويقها.

### انتقام الطبيعة

كل هـذه الكارثـة التـي اقترفتهـا الطبيعة ـ حسب نصوص الادعاء المعلنة وتأويلاتها المبطنة ـ جـاءت متزامنة مع تداعيات وباء لم يكن مخيال ألبير كامو، نفسـه، قادرا على الإحاطة بكل أسـئلته الوجودية الثابتة والمستجدة.

ليست الجزائر وحدها تخسر أبناءها وتفقد غاباتهـا وثرواتها بفعل الحرائق في مشـهد حزين طال البشـر والحيوان أيضـا، بل معظـم بلدان العالـم الواقعة تحـت حـرارة فاقـت معدلها السـنوي، حطمت أرقاما قياسية في تاريخها، وبات الناس يتحدثون بـ"منطق" يفوق المنطق، ويسـتخدمون تفسـيرات ميتافيزيقيـة تروّج يوما بعد يوم وتنتشـر لدى العامة والبسطاء.

هـذا الغضـب الطبيعـي العـارم (لنسـمّه كذلك مبدئيا علـى الأقل) أدخل الرعب في نفسـية الإنسان شرقا وغربا، وأعاد الأسـئلة الأولى من جحورها بعد أن ذهـب الإنسـان بعيـدا فـي ترويض الطبيعة بـل وادعى زورا أنه قد أوشـك على الإمساك بكل مفاتيحها والتحكم في غضبها.

أثبـت الخيـال الأدبي والسـينمائي هـذه المرة بالحجة والبرهـان، أنه قاصر وعاجز عن الإحاطة بمدى غضب الطبيعة وحـدود انتقامهـا منـذ ميثولوجيـا الإغريـق وإلـى غايـة ملامسـة سـطح المريخ.

ها هي النار التي أمسك بروميثيوس اليوناني بشـعلتها، وأقدم على سرقتها وأهداها إلى البشـر بغاية طهي الطعام، تنتقـم لنفسـها ولمجمـع الآلهـة عبـر الحرائـق، وتذكّر الإنسـان فـي كل مرة، أنها نقمة بقدر ما هي نعمة.

النار التي بدأ بها تاريخ الإنسان يوم اكتشـافها، وانبهر بها حي بن يقظان في رواية "ابن طفيل" الفلسـفية بعد أن كان لا يراهـا إلا في البرق، يمكـن لها أيضا، أن تنهي الإنسان وتقضي على حضارته فوق سطح الكوكب.

ومن اللافت والجدير بذكره، أن النار التي تلتهم اليوم الغطاء النباتي وتشرد الناس من منازلهم، هي التي اسـتحوذت على نشـاطات فلاسـفة ومبدعـين مثل الأميركـي اللاتيني إدوارد غالياتو، الذي ألف ثلاثية ضخمة بعنوان "ذاكرة النار". كما كتب غاسـتون باشلار كتابين مهمين هما "التحليل النفسـي للنـار" و"على ضوء شمعة".

هـذا بالإضافة إلى طقـوس التبخير والحـرق فـي الديانتـين البوذيـة والهندوسـية، ناهيـك عـن التعبـد من خلالها في العقيدة الزارادشتية.

### مشهد ميثولوجي

تشـتعل النار هـذه الأيـام على قمم جبـال الأولمب فـي اليونـان، حيث أكلت النسـور كبـد بروميثيـوس، لتمتد إلى بقاع كثيـرة في هـذا العالم الـذي نهل من حضـارة الإغريق، وتعجـز خراطيم الإطفائيـين وطائراتهم عـن محاصرتها وإخمادهـا في مشـهد ميثولوجي يعيد تذكيـر البشـر بصراعهـم الأزلـي مـع الطبيعة.

ومازالـت شاشـات التلفزيـون تبث صـورا ولقطـات لحرائق عجـزت أعتى وأقـوى الأفلام السـينمائية على الإتيان بمثلهـا، حتـى ليخيـل للمرء أنـه أمام نسـخة مطورة مـن فيلـم "القيامة الآن" لفرانسـيس فورد كوبولا، أو إزاء مشهد مـن مشـاهد الجحيـم التي تحفـل بها "الكوميديا الإلهية" لدانتي.

لا مـكان للرمزيـة أو الاسـتعارات الميثولوجيـة لمـا يحدث في هـذا العالم الـذي أصابه مسّ من الغضب بعد أن ملّ من إعطاء الإشـارات وإرسال التنبيهات حـول الاحتبـاس الحـراري.. والآتـي أعظم، بحسـب ما تفيد التقارير العلمية والبحـوث المتخصصـة، لكـن بعـض المقاربات المشـهدية مع المـوروث الأدبي والسـينمائي، تؤكـد مـدى استشـراف الإبداع الإنساني للمستقبل الذي نعيشه الآن.

هـا هي الكوارث تأتـي مجتمعة كما يحـدث في سـينما هيتشـكوك وملاحم هوميروس، وكل شـيء يحدث كما يتوقع الجميـع لـه أن يكـون كما فـي "حادثة مـوت معلن" للكولمبي غابرييل غارسـيا ماركيز.

> الخيال الأدبي والسينمائي أثبت هذه المرة بالحجة والبرهان أنه قاصر وعاجز عن الإحاطة بمدى غضب الطبيعة

جائحة كورونـا تتزامن مع الحرائق والفيضانـات والذوبـان القطبـي والهجـرات الجماعيـة لتشـكل خلفيـة مرعبة للاقتتال البشري على هذه الأرض التي كان وصفها بول إيلوار بأنها "زرقاء كبرتقالة".

إنه بلا شـك، مشهد في غاية القتامة، ولم يكن ليتخيله أشـد الكتاب تشـاؤما وسـوداوية فأيـن تتجـه البشـرية بعد هـذه العدمية، وأي جنس فني سـيتبناه المبدعون بعد الآن؟ بل وما فائدة السؤال عن الأجناس الفنيـة بعد انهيار الجنس البشري؟

نعم، انهار الجنس البشـري انهيارا شبه كامل وسـط أزمات أخلاقية أصابت السياسـة والاقتصاد، وبات حتى الأفراد الذين يتسببون في الحرائق، لا يتحملون المسـؤولية وحدهـم، فمعظـم الحرائق البرازيليـة في منطقة الأمـازون هي من صنع الإنسـان، إذ غالبا ما تبدأ الحرائق من قبل مسـتولين على الأراضي يزيلون الغابـات لأغـراض تربيـة الماشـية أو زراعـة المحاصيـل ثم تخـرج الأمور عن السيطرة.

وأمـام تقصيـر الحكومـات والدول الغنية في مهماتها لإنقاذ الموقف وتوفير العيـش الكريم لسـكان الأمازون، تحدث الواقعـة ويطـرح السـؤال الوجـودي المحيـر، والمتعلـق بعيـش المزارعـين ومـدى قدرتهـم علـى الاسـتمرار فـي البقاء.

هـذه الحرائق التـي تودي سـنويا بمسـاحات شاسـعة مـن الغابـات، لا تتسـبب فقـط بخسـائر ظاهـرة للعيان بـل بثقافـات تختفي مـع أصحابها مثل الحضارة الأمازونية التي أتى على ذكرها قدمـاء المؤرخين، ومازال يدرسـها علماء الأنثروبولوجيا في العصور الحديثة.

هكذا، ولحماقة الأقدار يحيلنا مشهد احتـراق غابة فـي الأمازون إلـى أفلام تناولت النسـاء الأمازونيـات وحروبهن الشرسـة ضـد الغزاة بكل مـا أوتين من فتنـة فـي الأجسـاد وبراعة فـي القتال ضمن ثقافة تمجد الأنوثة وتستعلي على الذكورة.

نعم، ثمـة ثقافات تلتهمهـا النيران وتفتـك بها الأوبئة أيضـا.. وهذه كارثة مضاعفة تصيب البشرية في مقتل ضمن مشهد تراجيدي يصيب بالفزع والشعور بعبثية ما آلت إليه الحضارة البشرية.

# تطوان حفيدة الموريسكيين تحتفي بمعمارها وتراثها الثقافي العريق

تطـوان (المغـرب) – تنظـم جمعيـة تطوان أسـمير وجمعيـة الحاجة زبيدة أفيلال بين الرابع عشـر والعشـرين من أغسـطس الجـاري "الأسـبوع الثقافي للمدينة العتيقـة لتطوان" الذي يحتوي على برنامج ثقافي متنوع.

وتتوخى هـذه التظاهـرة الثقافية، حسـب بلاغ للمنظمـين، التعريف أكثر بمؤهـلات المدينـة العتيقـة لتطـوان وبتراثهـا الثقافي والهندسـة المتميزة لمنازلهـا التاريخيـة، وبخصوصيـة التعابير الفنية والثقافية لمدينة الحمامة البيضاء، كمـا تسـمى، وتراثها المادي واللامـادي الذي تشـكل المـدن العتيقة جزءا هاما منه.

وحرصت اللجنة المنظمة للأسـبوع الثقافـي على تنظيـم كل فقرات برنامج التظاهرة داخل فضاءات المدينة العتيقة وبالضبط في عـدد من منازلها القديمة، وسـتحتضن دار ابـن عبداللطيف حفل افتتـاح التظاهرة يوم الرابع عشـر من أغسـطس الجاري، على أن تحتضن دار بن جلـون في الخامس عشـر من نفس الشـهر مائدة مسـتديرة حول موضوع "إسـهام المجتمـع المدنـي فـي برامـج إعـادة تأهيـل التراث وحفـظ الذاكرة" ينظمهـا ائتـلاف ذاكـرة المغـرب الذي يضـم ثمانـي جمعيـات وطنيـة تعنى بالتراث.

ويشـمل البرنامج العام ندوة دولية بالإسبانية، عن بعد، حول مشروع ترميم دار ابن مـرزوق ومطامر تطوان في أفق إنشـاء متحـف المطامر للمسـاهمة في إنعاش الحركة الاقتصادية والسـياحية للمدينة العتيقة، وذلك بمشاركة باحثين إسـبان في مجـال الهندسـة المعمارية بجامعة غرناطة وترميم المآثر المعمارية بجامعة ميلان الإيطالية.

كما سـتنظم ندوة ثانية حول المنزل والمعمار التطوانيين، بمشاركة مجموعة مـن الباحثـين في التـراث، مـن بينهم امحمد بن عبود وبوزيد بوعبيد وعثمان العبسي وخالد الرامي.

ويحتـوي البرنامـج علـى معارض في الفن التشكيلي وسـهرات موسيقية ستشـارك فيهـا مجموعة مـن الفنانين الهـواة، منهم رياض بوهـلال وجميلة المربيطو ومحمد المؤذن ومحمد البقالي، ومعـرض للصور يسـلط الضـوء على مآثر مدينة تطوان التاريخية بالأسـود والأبيـض للمهندسـة الكولومبية رانيا سيسـيليا، إلى جانب معـارض للفنون التقليديـة التطوانيـة كالخـط العربي والطـرز التطواني المعـروف بالتعجرة والزليـج التطوانـي والمنديـل الجبلي التقليدي والعصري والشاشية الجبلية.

وسـيقدم الباحـث عثمان العبسـي والمعلمـة لطيفـة الجيار عرضـا حول صناعة الزليج التطواني وطريقة الطرز التطواني، كما سـتعرض جمعية سيدي صالـح نمـاذج مـن الصناعـة اليدوية المنتشرة في منطقة جبالة.

ويضـم برنامـج التظاهرة سـهرة موسـيقية لجـوق فتحيـة للحضـرة التطوانيـة والآلة الأندلسـية في المقهى الثقافـي "لامدينة" الكائـن بدار الحاج، والـذي رمم في إطـار مشـروع ترميم خمسة منازل عتيقة ومرجعية.

كما سـيحتضن المقهى الثقافي "دار الفن"، الموجـود في دار بن خلفون بحي الملاح، سهرة موسيقية ومعرضا للفنون التشكيلية.

وخـلال التظاهرة سـيتم بـدار ابن جلـون تقـديم كتـاب "عمليـة تحريـر محمـد بن عبدالكريم الخطابي من خلال النصـوص" للباحث امحمـد بن عبود، بمشاركة الباحثين محمد ياسين الهبطي ومحمد خرشـيش وعبدالعزيز السعود ومحمد الشريف.

وأشـار المنظمـون إلـى أنه سـيتم نقل كل الأنشـطة عبر وسائل التواصل الاجتماعـي لتمكـين كل المهتمـين مـن متابعة الندوات والمعارض والسـهرات الفنية وباقي فقرات الفعالية.

تطـوان مدينـة مغربيـة عريقة لها عدة أسـماء، والاسم الواحد منها يُنطق على عدة أوجه؛ فتطوان التي تُسمى في الوثائق الرسمية الحمامة البيضاء لها من كل اسم صفة ودلالة تاريخية.

تعـدد أسـماء المدينـة يُحيـل إلى الحضـارات التي تعاقبـت عليها. ولئن كان تاريخهـا يعـود إلـى 40 عاما قبل الميلاد إلا أنها ما زالت محتفظة بالطابع الأندلسـي الموريسكي، وفيها من المعالم ما يجعل كل حضارة تنبعث من ماضيها وتُشـرق في حاضر هذه المدينة الواقعة فـي جبال الريف المغربية على سـواحل البحر المتوسط.

وللمدينـة آثـار ومعالـم تحكـي قصصا وتروي أحداثا يحفظها التاريخ وتتناقلها الألسن، حيث تحيط بمبانيها العتيقـة أسـوار يمتـد بعضهـا لأكثر مـن خمسـة كيلومتـرات. وكأي مدينة مُحصنـة كانت لها أبـواب تُدخل الزائر والتاجر، وتمنع الغازي والجائر، ويقدر عددها بسـبعة أبواب لـكل منها حكاية منفردة.

> كتب وندوات ثقافية وبحوث معمارية ومعارض في الفن التشكيلي وسهرات موسيقية في «الأسبوع الثقافي للمدينة العتيقة لتطوان»

واكتست تطوان أهمية خاصة خلال الحقبـة الإسـلاميّة ابتـداءً مـن القرن الثامن بصفتها همـزة وصل مهمة بين المغـرب والأندلس. ثم بعد اسـتعادتها مجـددًا أعـاد اللاجئون العائـدون إلى المنطقة بناءها بعد أن طردهم الإسـبان، وهو ما كان جليًا في الهندسة المعماريّة والفن اللّذَيْن يشـهدان علـى التأثيرات الأندلسـية الواضحـة. وتُعتبر تطوان من أصغر المـدن المغربية، ولكن من دون شـك هي الأكثر كمالاً حيث بقيت معظم الأبنية بعيدةً عن التأثيرات الخارجية.

مدينة تلقب بالحمامة البيضاء